فظائع الحرب

وما الحرب الاَّ ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديثِ المرجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وتضرَ اذا ضريتموها فتضرمِ
فتعركُكمُ عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافاً ثم تجمل فتتئمِ
فتنتج لكم غلمان اشأم كلهم كاحمر عادٍ ثم ترضع فتفطمِ

هذا ما قالهُ زُهَير بن ابي سلمى منذ اكثر من الف وثلثمائة سنة . وقلما كتب احد عن الحرب من ابناء هذا اللسان الاَّ استشهد بهِ ولاسيما بقولهِ « تعركُكمُ عرك الرحى بثفالها» فان الحرب تطحن الناس طحناً كما تطحن الرحى حبوب الحنطة

ومدار الحرب على قتل الخصم او اسرهِ او جرحهِ وتركهِ عاجزاً عن استعمال السلاح . وقتلهُ مباح في شرع كل الامم التي تبيح الحرب . وقد يتبادر الى الذهن انهُ اذا حلَّ القتل فكل شيءٍ دونهُ . ولكن العواطف البشرية التي تخضع للضرورة وتنضي عن قتل الخصم تشمئزُّ من تعذيبهِ وتنفر من التنكيل بالذين لا يستطيعون حمل السلاح من المرضى والنساء والشيوخ والاطفال . بل تنفر ايضاً من اتلاف كل ما منهُ نفع اذا لم يكن من اتلافهِ فائدة حربيَّة . ولذلك قامت قيامة الكتَّاب على من ادَّعى ان عمرو بن العاص حرق مكتبة الاسكندرية لانهم حسبوا حرقها جريمة لا تغتفر . بل قامت قيامتهم على نبوليون بونابرت لانهُ نقل الصور الشهيرة من ايطاليا الى فرنسا حاسبين ان تفائس الفنون يجب ان لا تنقل من مكان الى آخر على هذه الصورة لئلاَّ تتلف في الطريق . ولو قتل نبوليون اصحاب تلك الصور في معركة من المعارك لما لامهُ احد بكلمة

وكنا ننتظر ان نرى العمران سائراً من حسن الى احسن وان نجد العواطف الانسانية آخذة في الارتقاء والتغلُّبِ على الاميال الوحشيَّة ولاسيما في البلدان الاوربية الى ان ثارت هذه الحرب فاذا فيها من صنوف الهمجيَّة ما يندى لهُ جبين البشرية خجلاً

لما تواترت الشكاوى من الفظائع التي ارتكبها الالمان في بلجكا وفرنسا انتدبت الحكومة الانكليزية لجنة من الكبراء المشهود لهم بالفضل والنبل برئاسة لورد برس لتبحث عن حقيقة هذه الشكاوى فبحثت وحققت ورفعت تقريراً بذلك جاء هو وشواهدهُ كتاباً كبيراً شاهداً لما يخلو الغرض وتوخي الحقيقة كأن اعضاءها من قضاة التحقيق الذين يقصدون تبرئة المتَّهم ولا يثبتون عليهِ تهمة الاَّ بعد توفر الادلة القاطعة

وكانت وزارة الداخلية الانكليزية قد انتدبت العلاَّمة الاستاذ مورغان منذ توفير الماضي لتحقيق بعض الفظائع التي ارتكبها الالمان فسلَّم الادلة والبينات التي جمعها للجنة المشار اليها فاختارت منها ما يخلص بالجملة لانها انما انتدبت للبحث في الفظائع التي ارتكبت هناك واهملت ما ارتُكب منها في فرنسا فاخذها هو واضاف اليها بيِّنات وشواهد اخرى وقعت في يده بعد ذلك واستخلص منها مقالة نشرها في مجلة القرن التاسع عشر فاقتطفنا منها الحوادث التالية

معاملة الجنود

المتفق عليهِ عند الامم المتمدنة في هذه الايام ان الجنود المتحاربة تتقابل وتترامى بالرصاص والقنابل وتتضارب بالسيوف وتطاعن بالحراب ويجتهد كل جندي ان يقتل خصمهُ او يجرحهُ او يأسرهُ. ومتى رأى ان خصمهُ صار عاجزاً عن مقاومتهِ بالقوة إما لجرح اصابهُ او لانهُ رمى سلاحهُ واستسلم عفا عنهُ جرياً على القول المأثور «العفو عند المقدرة من شيم الكرام». ولم يقف عند ذلك بل عاملهُ بالرفق كأنهُ اخوهُ فيطعمهُ ويسقيهِ ويواسي جراحهُ. هكذا فعل الجنود الانكليز والمصريون بالذين وقعوا في يدهم من جرحى الدراويش واسراهم وهكذا فعلوا الآن في الذين وقعوا في يدهم من جرحى الاتراك واسراهم. بل ان اسرى الاتراك يعاملون في مصر الآن احسن مما يعامل بهِ افراد الجيش الانكليزي وضباطهم. وقد جاءنا كتاب بالامس من الهند من اسير عثماني بغدادي في رتبة بوزباشي قال فيهِ انهُ يعامَل احسن معاملة وحكومة الهند تنفقهُ كل شهر ٢٧٠ ربية اي ١٧٥٠ غرشاً مصرياً وهو راتب البوزباشي

هذا ما تفعلهُ الآن الحكومة المصرية والحكومة الهندية اللتان تسيطر عليهما الحكومة الانكليزية. وهذا ما تتوقعهُ من كل حكومة متمدنة تجري على القوانين الدولية التي اقرَّ عليها مؤتمر جنيفا. بل ان دول اوربا كلها تقول ان هذه القوانين مقدسة لا يجوز العبث بها اما الجنود الالمانية فقد عبثت بها عن قصد وتعمُّد على ما اثبتهُ الاستاذ مورغان فقد قال ان بعض الالمان كانوا يرفعون الراية البيضاء وهي علامة التسليم فاذا تقدَّم اليهم بعض الانكليز ليقبلوا تسليمهم ويأخذوهم اسرى عادوا الى بنادقهم وكانوا قد اخفوها وقابلوهم بنار آكلة. او كانوا يرفعون الراية البيضاء طالبين المذاكرة في التسليم فاذا دنا ضابط بريطاني منهم للمذاكرة في ذلك اطلقوا عليهِ الرصاص وقتلوهُ. وقد تكررت هذه الحوادث مراراً عديدة حتى ثبت لي ان الالمان يفعلون ذلك مأمورين من ضباطهم. وكثيراً ما وضعوا الصليب الاحمر على مركبات فيها ذخائر لا غير لكي يُحمَى جانبها مع انهُ لا يجوز ان يوضع حسب قوانين الحرب الاَّ على المركبات التي فيها جرحى او ما يتعلَّق بالجرحى. واذا رأوا اناساً من

الانكليز والفرنسويين يحملون الجرحى حقيقة من ميدان القتال اطلقوا الرصاص عليهم حتماً حتى لم يعد الانكليز يجسرون ان ينقلوا جرحاهم الاَّ ليلاً . والجرحى الذين يصابون في الصباح يُتركون في الخنادق الى ان يخيّم الليل لا مغيث لهم ولا معين مع ان اطلاق الرصاص على الجرحى مخالف لقوانين الحرب عند كل الدول

ومثل ذلك في الفظاعة قتل الجرحى المطروحين في ميدان القتال. قال الاستاذ مورغان انهُ كثيراً ما كان يحدث ان يرتدَّ جنود الانكليز من امام الالمان و يتعذر عليهم ان يلتقطوا جرحاهم و يأخذوهم معهم ثم تأتيهم نجدة فيعودون الى حيث كانوا فيجدون الجرحى الذين تركوهم اولاً قد طُعنوا بالحراب ودقت رؤوسهم حتى ماتوا مع انهم لما تركوهم كانوا مصابين بالرصاص فقط في غير مقتل

وقال ومن هذا القبيل قتل الاسرى فقد توفرت الادلة على ان الذين يؤسرون فرقاً صغيرة يُقتلون كلهم والذين لا يقتلون يهانون اشد الاهانة فيسلبون ما معهم و يرفسون بالارجل و يهددون بالقتل حتى يخبروا عمَّا يسألون عنهُ و يُجبَرون على حفر الخنادق

و يظهر من الادلة التالية ان معاملة الجرحى والاسرى على هذه الصورة سياسة مقصودة صدرت الاوامر بها من القواد العظام . ثم تبيَّن ان هذه المعاملة خاصة بالبريطانيين واما الهنود فيعاملون بالرفق و يقال لهم ان المانيا تشفق عليهم لانها تعلم انهم مرغمون على الحرب. وكثيراً ما يُطلق الاسرى منهم بعد ان يوصوا بان يأتوا برفاقهم و ينضموا الى الجيش الالماني قال لي جندي هندي ما يأتي

« وقعت انا وثلاثة من رفاقي جرحى فوجدنا الالمان كذلك وضمدوا جراحنا وطلبوا منا ان ننضم اليهم وعرضوا علينا مالاً واراضي نقلت لهم اني اكلت ملح الملك فلا يمكنني ان اخونهُ واجلب العار على قومي . فاخذوا منا البقسماط الجاف الذي معنا واعطونا بدلاً منهُ خبزاً من خبزهم فقلت لهم اننا براهمة ولا يمكننا ان نأكل من خبزهم فتركونا وهم يقولون اننا اذا اسرناكم ثانية قتلناكم »

وفي الثالث من شهر مايو ذهبتُ الى وزارة الحربية في باريس فاراني المسيو رنه بتي رئيس قلم القضايا اليوميات التي وجدت مع اسرى الالمان فوجدت بينها يومية جندي اسمهُ غوتش وقد كتب فيها بتاريخ ٦ اكتوبر ١٩١٤ ما ترجمتهُ

« دعانا اليوزباشي وقال لنا المرجح انكم تجدون في الحصن (انفرس) جنوداً من الانكليز اما انا فلا اريد ان ارى اسرى منهم في يدكم فكان جوابنا لهُ براثو »

ويومية اخرى وجدت مع قتيل اسمهُ رتشرد جرلود قتل في سبتمبر وفيها ما ترجمتهُ

« وهنا ايضاً يعامل الانكليز والبلجيكيون باشد انواع القسوة فيقتلون بلا شفقة ولكن ويل لمن يقع في يدهم من الالمان »

والظاهر ان العبارة الاخيرة مبنيةٌ على ما كان الضباط الالمان يقولونهُ للجنود لكي لا يسلموا . ويؤيد ذلك ان جندياً المانياً اسمهُ شلز كتب في يوميتهِ ان الضباط الالمان اخترعوا هذه التهمة لكي يمنعوهُ هو ورفاقهُ من التسليم

ووجد في يومية جندي اسمهُ راغ بتاريخ ٢١ اكتوبر ما ترجمتهُ « نتبعنا العدو وقتلنا كثيرين من الانكليز فانبذرت اشلاؤهم في الارض والذين وجدناهم في الخنادق ولا يزالون احياء قتلناهم واسر بلوكنا ٦١ اسيراً » . اي قتلوا الجرحى الذين وجدوهم في الخنادق

هذه شهادات الالمان انفسهم عما كانت بلوكاتهم الصغيرة تفعلهُ من قتل الجرحى والاسرى . وقد وجدتُ بعد البحث الطويل ادلة قاطعة على صحة ذلك فقد نشرت الحكومة الفرنسوية صورة الاوامر التي اصدرها امير اللواء ستنجر الذي يقود اللواء الثامن والخمسين وفيها يأمر جنودهُ ان لا يأسروا احداً بل يقتلوا كل من يقع في يدهم من اعدائهم سواء كان سليماً او جريحاً . لكن الحكومة الالمانية كذَّبت ذلك بدعية انهُ غير صحيح فبحثتُ عن هذه الاوامر حتى عثرت على نسخة منها وهذه ترجمتها

« اوامر عسكرية في ٢٦ اغسطس ١٩١٤ الى الجنود من البلوك السابع من الاي المشاة ١١٢ عند الدخول الى غابة سان بارب . من الآن فصاعداً لا يؤسر احد بل يقتل كل الاسرى ولو كان عددهم كبيراً ويجب ان لا نترك وراءنا احداً حيًّا »

لما اطلعت على هذا الامر العسكري الصريح اخذت ابحث عن افعال الالاي ١١٢ الالماني فوجدت في تلم المخابرات عندنا نتيجة التحقيق مع اسيرين من هذا الالاي فقد قال احدهما ان الاوامر صدرت للالايهم بان يحسنوا معاملة الهنود ويعاملوا الانكليز كما يريدون . وقال ايضاً ان ٦٥ اسيراً من الانكليز قتلوا صبراً في ٢٣ اكتوبر في طريقهم الى ليل فتلهم الذين كانوا يحرسونهم في الطريق فُدحوا على ما فعلوا . وشهد غيرهُ من اسرى الالمان انهم كانوا مأمورين بقتل كل من يقع في يدهم من الانكليز

ووقع في يدنا اسير من هذا الالاي بعد ذلك وقد كتب في مذكرتهِ Keine Gefangene اي لا اسرى

ورأيت في اواخر ابريل في قلم المخابرات يومية اسير الماني اسمهُ رينهرت برنيسن من

الالاي ١١٢ وفيها يقول « ثم جاء امر من اللواء ان الفرنسويين الذين يقعون في ايدينا سواء كانوا جرحى او غير جرحى يجب ان نقتلهم ولا نأسر احداً »

وعندي ان هذا دليل قاطع على ان امير ذلك اللواء امر جنوده هذا الامر لاسيما وانهُ مؤيد بشهادات كثيرين من رجالنا الذين رأوا الالمان يطلقون الرصاص على اسراهم و يقتلونهم . ولا يعقل ان جنود الالمان يفعلون ذلك من تلقاء انفسهم من غير ان يأمرهم ضباطهم

معاملة غير الجنود

اني احصر كلامي في ما حدث في شمال فرنسا لان ما حدث في البلجيك جاء تفصيلهُ في تقرير اللجنة المشار اليها آنفاً

لما مرَّ جنود الالمان في نواحي الاير وهزبروك وبترن وليل اطلقوا الرصاص على السكان الذين كانوا يشاهدونهم في طريقهم من غير تمييز سواء كانوا فلاحين يحرثون ارضهم او مهاجرين هاربين من وجههم او فعلة عائدين الى بيوتهم واذا حاول احد ان يهرب من وجههم قتلوهُ لا محالة . ولقد كانوا يطلقون الرصاص على النساء والاولاد والعجائز كأنهم ارانب ومن خالف اقل امر لهم فعقابهُ القتل حالاً . طلبوا مرةً من قسيس كنيسة ان يعطيهم مفتاح برجها ولما لم يجدهُ حالاً اطلقوا عليهِ الرصاص وقتلوهُ . وطلبوا من راعٍ ان يعطيهم خبزاً ولما لم يأتِ طلبهم حالاً قتلوهُ . وحاول خباز ان يهرب من وجههم فربطوا عنقهُ بحزامهِ وخنقوهُ . وطلب ثلاثة وعشرون جندياً من امرأة ان تقدم القهوة لهم ولما لم يكن عندها من البن ما يكفيهم كلهم اخذوا ابنها الرضيع من يدها وغطسوا رأسهُ في الماء الغالي . وحاول رجل شيخ عمرهُ ٧٧ سنة ان يخفي امرأتين في بيتهِ ليخبئهما من البغاء فاطلقوا الرصاص عليهِ وقتلوهُ

وقد ذكرتُ هذه الامثلة مما لديَّ من الشواهد الكثيرة من غير انتقاء وهي تدل على اخلاق الجنود الالمانية . وكان يمكن حسبانها من قبيل الفعال الشاذة التي يرتكبها الجنود احياناً مخالفين بها اوامر ضباطهم ولكن كثرتها تدل على ان ضباطهم قد غرسوا في نفوسهم ان لا قيمة لحياة الانسان . وهناك فعال لا يمكن ان يأتيها الجنود الا اذا امروا بها امراً كما حدث في بليول ولاغورغ ودولبو حيث لم يبدِ السكان اقل مقاومة وكان الجنود مع ضباطهم فاخذوا السكان وامروهم ان يحفروا قبورهم بايديهم ثم وقفوا والضباط منهم واطلقوا عليهم الرصاص دفعةً واحدة . وقد قتل في دولو ١١ نفساً على هذه الصورة وهي قرية صغيرة وهؤلاء ليسوا من سكانها بل من سكان القرى المجاورة لها . واخذ الجنود ٢٥ رجلاً من سكان بليول

ولم يجمع عنهم شيء بعد ذلك والمرجح انهم قُتلوا كما قُتل غيرهم . والمرجح عندي ان الذين فتش عنهم انهم أُمروا بحفر قبورهم إنما أُمروا بحفر الخنادق ثم طُلب منهم ان يخبروا عمَّا يعرفونهُ من حركات الجيش ولما تذكأوا قُتلوا . ولكن كل ما فعلهُ الالمان هناك غير جائز حسب قوانين الحرب . وقد قرأ بعض الاسرى الانكليز وقرروا ان الالمان كانوا يجبرونهم على حفر الخنادق ووجد في يومية جندي سكسوني ما ترجمتهُ

« ان الاسيرين اللذين كانا معي عملا عملاً شاقًّا في حفر الخنادق وعند الظهر أُمرت ان اذهب الى القرية مع اسيريَّ فسررت لانني كنت مأموراً ان اقتلهما اذا هجم الفرنسويون واني اشكر الله لانني لم اضطر الى ذلك »

ثم ان من عادة الالمان ان يحسبوا اهل كل بلد مسؤولين عمَّا يفعلهُ واحد منهم فاذا اتفق ان احداً اطلق بندقيتهُ عرضًا ولو كان من الالمان انفسهم فالالمان يقتلون الرهائن التي عندهم من اهالي البلد او يختارون بعض السكان و يقتلونهم او يقتلونهم كلهم . وقد يحسبونهم مسؤولين عن اعمال الجنود الحربية فاذا ذهب بعض الجنود الفرنسويين للاستطلاع قرب قرية فرنسوية او بلجيكية عرَّضوا اهلها كلهم للقتل او للغرامات الفاحشة . وقد أمر شيوخ البلدان الفرنسوية سكانها ان لا يطلقوا بندقية مطلقاً وان يسلموا بنادقهم كلها لاولي الامر لكي لا يبقوا سبيلاً للالمان عليهم ومع ذلك لم يسلموا من شرهم لانهم عاملوهم بالتعنُّت والافتئات وحسبوهم مسؤولين عن كل ما يتعبهم او يكدِّر صفاءهم فقد هددوا مرة شيخ بلدة بالقتل لان غاز الضوء انقطع عن البلدة . وقُرع جرس المحطة في بلدة اخرى فاتى الالمان بشيخها وكادوا يقتلونهُ لو لم يثبت لهم ان الذي قرع الجرس هو جندي الماني . فاذا اعتبرت السلطة العليا حياة السكان رخيصة الى هذا الحد فلا عجب اذا استخفَّ بها الجنود وقتلوا السكان كما يقتلون الخنافس

الاعتداء على النساء

جنود الالمان مسيحيون كلهم والمسيحيون يقدسون اوامر التوراة والانجيل و يقولون انها اوامر الهية لا يجوز العبث بها . ومن اخص هذه الاوامر الوصية السابعة من الوصايا العشر وهي « لا تزنِ » ويقول اليهود والمسيحيون ان الله تعالى كتبها باصبعهِ في لوحي الشهادة . ومع ذلك فقد فعل جنود الالمان فعالاً من هذا القبيل يستنكف منها زنوج افريقية وتأباها الوحوش الضارية . والحوادث التي استشهد بها الاستاذ مورغان تعاف النفس الاطلاع عليها فيعذرنا القراء اذا ابينا تسطيرها